الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والبحوث الإنسانية
(EISSN): 2707-5192 ISSN: 2616-5864

العدد الثامن عشر
18 مـــارس 2021

مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري
من خلال رحلة ناصر خسرو

د. عفراء عازم عليان الشراري*

Dr.afra@hotmail.com

الملخّص:

تتناول هذه الدراسة الرحلة الرابعة للرحالة ناصر خسرو إلى مكة المكرمة، والتي قام بها في القرن الخامس الهجري من غرة رجب 442هـ (10نوفمبر1050م) إلى العشرين من ذي الحجة من سنة 442هـ (3 مايو 1051م). وستتناول وصف الرحالة لمكة المكرمة والمسجد الحرام والكعبة المشرفة، وأجوائها صيفا وشتاء، وستتطرق لأهم الفاكهة والخضار الموسمية التي تتواجد فيها، والعملة المتبادلة آنذاك، كما ستورد جزءًا من اهتمام خلفاء بني العباس بتوسعة المسجد الحرام وبناء الدور، والفندقة، وستستطرد في التفصيل بذكر المناسك والأمور التي يقوم بها الحاج والمعتمر في الموسم. وانقسم البحث إلى مبحثين: الأول الوضع الحضاري في مكة، والثاني وصف المسجد الحرام والكعبة. وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، من أبرزها: ازدهار النشاط التجاري في مكة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، لا سيما في موسمي الحج والعمرة وتعدد الأسواق وتنوع المهن، وتعدد مصادر الموارد المائية في مكة والمشاعر في القرن الخامس الهجري، ومنها الآبار المالحة، وقد عني بعض خلفاء العباسيين ببناء كثير من الأحواض والمصانع الكبيرة لتوفير المياه. كما تنوع النشاط الزراعي في مكة ووجد عدد من الفاكهة الموسمية مثل العنب والبطيخ، وكذلك الخضار كالخيار والباذنجان. والفاكهة كالأترنج.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، مكة المكرمة، المسجد الحرام، الكعبة المشرفة، ناصر خسرو.

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - قسم الدراسات الإسلامية - كلية الشريعة والقانون - جامعة الجوف – المملكة العربية السعودية.

DOI: 10.35696/1915-000-018-014

الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والبحوث الإنسانية
(EISSN): 2707-5192 ISSN: 2616-5864
العدد الثامن عشر 18
مـــارس 2021

Makkah Al-Mukarramah (Mecca) in the First Half of the Fifth Century AH Through the Journey of Nasir Khusraw

Dr. Afraa Azem Alyan Al-Sharari*

Dr.afra@hotmail.com

Abstract:

This study discusses the fourth trip of the traveler Nasir Khusraw to Makkah, in the fifth century in 1st of Rajab 442 H (November 10, 1050) to Dhu Al-Hijjah 20, 442 H (May 3, 1051). It deals with the traveler's description of Makkah, Grand Mosque and Holy Kaaba. It also describes Makkah's weather in summer and winter, its most important seasonal fruits and vegetables and the currency used at that time. The research has been divided into two sections: the first is about Makkah's civilization, and the second is a description of the Grand Mosque and Kaaba. The research has reached many results, most notably: The commercial activity flourished in Makkah in the first half of the fifth century, especially in the Hajj and Umrah seasons. Makkah was known for its multiplicity of markets and professions, and for the abundance of water resources, including salty wells, which prompted the Abbasid Caliphs to establish basins and plants for water supply. The agricultural activity was diversified in Makkah and there were a number of seasonal fruits, as well as vegetables.

Keywords: Trip, Mecca, Sacred Mosque, Holy Kaaba, Nasir Khusraw.

* Assistant Professor of Islamic History, Department of Islamic Studies, Faculty of Sharia and Law, Al-Jouf University, Saudi Arabia..

المقدمة:

أسباب اختيار الموضوع:

تتناول هذه الدراسة بحث "مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري من خلال رحلة الرحالة الفارسي ناصر خسرو"، وكشف جوانبها وأهم ما جاء فيها.

إشكالية البحث:

تدور إشكالية البحث الرئيسة حول دراسة ومناقشة حضارة مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري من خلال رحلة الرحالة الفارسي، وتعدد جوانبها؛ وقدمت الدراسة نتائج جيدة.

المنهج المتبع:

سوف تقوم الدراسة على المنهجين التاريخي والوصفي، حسب فقرات البحث وتوفر المادة العلمية، وكذلك المنهج العلمي من حيث التحليل والتعليل، والاستنتاج.

أهداف البحث:

أ- القيام بقراءة تحليلية لرحلة ناصر خسرو إلى مكة.

ب- مناقشة أبرز المعالم الحضارية.

ج- الخروج باستنتاجات منطقية لوصف الرحالة ناصر خسرو لمكة.

أقسام البحث: جاءت هذه الدراسة في مبحثين: المبحث الأول: الوضع الحضاري في مكة.

المبحث الثاني: وصف المسجد الحرام والكعبة .

وسوف نُذيّل البحث بخاتمة تعرض أهم ما توصلت إليه الدراسة.

المبحث الأول الوضع الحضاري في مكة:

قدم الرحالة الفارسي ناصر خسرو إلى مكة في جمادى الآخرة من عام 422هـ، وبيّن الغاية من حضوره وهو أنه حضر لأداء مناسك العمرة، ووضح لنا أنه قد حضر خلق كثيرون من نواحي

الحجاز واليمن في أول رجب، وبيّن أهمية تلك المناسبة، وأنها موسم عظيم تشبه عيد رمضان وهم يحضرون وقت الحج، ولأن طريقهم قريب وسهل يأتون إلى مكة ثلاث مرات كل سنة[1].

وصف الرحالة ناصر خسرو لمكة:

وصف الرحالة مكة وذكر أنها تقع بين جبال عالية تحيط بها، ولا ترى من بعيد، ومن جميع الجوانب يقصدها الزائر ، وأقرب الجبال منها جبل أبي قبيس[2]، ويقع في الجزء الشرقي من مكة وهو مستدير كالقبة ، ثم يسترسل في وصفه ويذكر أنه لو رمي سهم من أسفله لبلغ قمته، وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال إن نبي الله إبراهيم رفعه عليه.

وتشغل هذه المدينة الوادي الذي بين الجبال والذي لا تزيد مساحته عن رمية سهمين في مثلها، والمسجد الحرام يقع وسط هذا الوادي ومن حوله مكة والشوارع والأسواق[3].

وأورد ما مفاده أن الجبال الشاهقة تحيط بمكة وإن وجدت ثغرة[4] بين الجبال سدت بسور حصين تمركزت أمامه بوابة، ولعل ذلك حفاظًا على أمن مكة والبيت العتيق[5]. كما بين أن مكة أرض مجدبة[6] وخالية من الأشجار باستثناء الباب الغربي للمسجد الحرام، وهو ما يسمى بباب إبراهيم، حيث وجد الكثير من الشجر الكبير الذي يرتفع على حافة البئر[7]. وتتضح لنا عناية الخلفاء العباسيين والفاطميين بتسهيل طرق المشاعر، حيث ذكر أنه تقع على سفح جبل أبي قبيس درجات كبيرة من الحجارة المستوية التي يصعد الحجاج عليها للدعاء والتقرب إلى الله[8].

أما المروة فذكر أنها تقع في نهاية السوق شمالي الجبل وسط مكة، ووضح أنه قد شيدت عليها منازل كثيرة[9]، ولعلها فندقة وحمامات للحاج.

واتضح من خلال الرحلة عنايتهم بتشييد الأبراج والمساجد والمنازل التي ينزلها الحاج والمعتمر والقادم للزيارة، ويحرمون منها فذكر أن العمار[10] وهم قادمون من بعيد يرون أبراجا ومساجد على مسافة نصف فرسخ[11] تحيط بمكة فيحرم منها للعمرة ثم يرحل إلى مكة، ولم

يقتصر الأمر على القادم من خارج مكة، فقد ذكر أن من يريد العمرة من الحاج وهو بمكة فإنه يذهب إلى تلك الأبراج ويرتدي ثوب الإحرام ويهتف بالتلبية ويدخل مكة[12].

وبين أن لكل أهل مدينة من مدن خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة، ولكن غلب عليها الخراب[13] وأن بعض خلفاء بغداد قد بنى عمارات كثيرة وأبنية جميلة لحق بعضها الخراب والبعض الآخر اشتراه الناس (أصبح ملكا خاصا)[14].

التنوع السكاني:

وفي سياق حديثه عن السكان في تلك الفترة ذكر أن سكان مكة يغلب عليهم التنوع في الجنس والعرق، وذكر أنه كان يسكن بجوار مكة حوالي ألفين من أهلها، والبقية من الغرباء والمجاورين يقرب عددهم من الخمسمائة[15]، ولكنه ذكر هجرة الكثير من سكان مكة منها، وذلك بسبب انتشار القحط في مكة في تلك الحقبة[16].

النشاط التجاري:

كما تحدث عن نشاط الأسواق وازدهار التجارة في مكة في موسم العمرة وذكر أن الأسواق تنوعت في مكة، وأن أمام جبل المروة توجد سوق كبيرة فيها عشرون دكانا متقابلة اختصت بمهنة الحجامين والحلاقين الذين يشغلونها لحلق شعر الرأس[17] كما ذكر أنه يوجد عند الجانب الشرقي للمسجد سوق تمتد من الجنوب إلى الشمال[18]. وذكر أن هناك سوقا كبيرة للعطارين حين يتم الحاج عمرته يخرج من المسجد الحرام إليها، وتقع ناحية الشرق وهي سوق جميلة البنايات[19].

الموارد المائية في مكة:

أما الموارد المائية ومصادرها في مكة والمشاعر في القرن الخامس الهجري فقد بيّن الرحالة ناصر خسرو أن المياه في مكة آنذاك كانت تعتمد وبشكل كبير على الآبار المالحة غير مستساغة الطعم، والتي لا تصلح للشرب، ولكن يبدو أن الخلفاء العباسيين قد بنوا فيها كثيرًا من الأحواض والمصانع الكبيرة بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار[20]. كما اعتنى بتوفير الماء في

مكة بعض المحسنين من أمراء الأقاليم المجاورة، فقد أنشأ ابن أحد أمراء عدن[21] مجرى للماء تحت الأرض، وأنفق عليه أموالا كثيرة يسقى منه شجر في عرفات[22]، وذكر أن هذا الماء قد حبس هناك حيث غرست الحدائق بالقرب منه فأصبح لا يصل مكة منه إلا القليل؛ والسبب أن هذه القناة لا تصل إلى مكة، وأن القليل منه يجمع في حوض خارج مكة فيأخذ منه السقاؤون ويذهبون به إليها ويبيعونه[23].

وذكر نشاط تجارة بيع الماء العذب في مكة وأن بعض السقائين كان يجلب الماء من أحد الآبار المجاورة ومنها بئر يقع على مسافة نصف فرسخ من طريق برقة يسمى بئر الزاهد[24].

النشاط الزراعي في مكة في القرن الخامس الهجري:

تطرق الرحالة خسرو للنشاط الزراعي في مكة ووصف بعض الفاكهة المتداولة آنذاك، وذكر أن منها الخيار والأترنج والباذنجان، وأنها تكثر في شهر فبراير وكانت كلها طازجة، كما قال: إن جو مكة حار جدا[25]. وأثمر العنب في شهري مارس وأبريل، فأحضر من السواد إلى مكة وبيع في السوق، وكذلك البطيخ كان يكثر في شهري أبريل ومايو. وأن الفاكهة متوفرة طوال أيام الشتاء فلم تنقطع قط[26]. ومع ذلك تحدث عن انقطاع الأمطار وانتشار القحط حول مكة في تلك الفترة وتأثير ذلك؛ ما أدى إلى ارتفاع بعض السلع الغذائية الأساسية ومنها القمح الذي بلغت قيمة الستة عشر مَنًّا منه دينارا مغربيا[27]. ومن ذلك يتبين للباحثة نوعية العملة المتداولة آنذاك وهي الدينار المغربي.

وذكر أن هذه زيارته الرابعة إلى مكة ومكث بها مجاورًا من رجب سنة 442هـ (10 نوفمبر 1050) إلى العشرين من ذي الحجة (3 مايو 1051)[28].

المبحث الثاني: وصف المسجد الحرام والكعبة

وصف الرحالة ناصر خسرو شكل المسجد الحرام وذكر أنه يقع وسط مكة ويمتد بالطول من الشرق إلى الغرب وبالعرض من الشمال إلى الجنوب، وأن سوره ليس قائم الزوايا، بل أركانه مقوسة تميل إلى الاستدارة، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة في أي جهة كانوا

يصلون بالمسجد[29]. وأن أقصى طول للمسجد يمتد من باب إبراهيم إلى باب بني هاشم[30] بما مقداره أربع وعشرون وأربعمائة ذراع، وعرضه من الجهة الشمالية من باب الندوة حتى باب الصفا من الجنوب، وأقصى اتساع له مقداره أربع وثلاثمائة ذراع، وأنه بسبب استدارة شكله تبدو ساحة المسجد أضيق في جهة وأوسع في جهة أخرى[31].

وذكر عناية العباسيين بالأروقة ووجد في المسجد الحرام ثلاثة أروقة رفعت أسقفها على أعمدة من الرخام، ووسط هذه الأروقة مربع، وعلى طول السقف من ناحية ساحة المسجد خمسة وأربعون طاقا، وعلى عرضه ثلاثة وعشرون، وعدد الأعمدة الرخامية أربعة وثمانون وأربعمائة عمود، وكلها أرسلت من الشام عن طريق البحر بأمر خلفاء بغداد، وأنه حين بلغت هذه العمد مكة بلغ ثمن الحبال التي شدت بها إلى السفن والعجلات، والتي قطعت قطعا، ستين ألف دينار مغربي، ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وضع عند باب الندوة، قيل إنه اشتري بوزنه ذهبا[32].

وذكر أن للمسجد الحرام ثمانية عشر بابا عليها طيقان[33] مقامة على عمد من الرخام وضعت بحيث لا تعوق فتح الأبواب، وعلى الجانب الشرقي أربعة أبواب: من الركن الشمالي باب النبي وبه ثلاثة طيقان مقفلة، وعلى هذا الجانب نفسه عند الطرف الجنوبي (للباب الأول) باب آخر أيضا، وبين هذين البابين أكثر من مائة ذراع، ولهذا الباب طاقان وفي خارجه سوق العطارين، وقد كان منزل النبي عليه السلام في هذه السوق، وكان يدخل من هذا الباب للصلاة في المسجد[34].

وعلى الحائط الجنوبي الذي هو طول المسجد سبعة أبواب: أولها على الركن المقوس واسمه باب الدقاقين[35] وله طاقان، وغربيه بقليل باب آخر ذو طاقين، يقال له باب الفسانين، وبعده بقليل باب الصفا وله خمسة طيقان أكبرها الطاق الأوسط، وعلى كل من جانبيه طاقان صغيران، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخرج من هذا الباب ويذهب إلى الصفا

ويدعو[36]، ووصف شكل عتبة الطاق الأوسط بأنها مكونة من حجر أبيض كبير، ويضع بعض الحجاج وجوههم على هذا الحجر وبعضهم يضعون أقدامهم تبركا[37].

وذكر عدد أبواب الحائط الغربي من المسجد وأنها ثلاثة، منها باب عروة[38] وباب إبراهيم، وأن أبواب الحائط الشمالي من المسجد أربعة: أولها باب الوسيط، وباب العجلة، وباب الندوة، وباب المشاورة[39].

وصف الكعبة:

وصف الكعبة المشرفة بأنها في وسط ساحة المسجد ويسمى ركنها الجنوبي الغربي بالركن اليماني وركنها الشمالي الغربي بالركن الشامي ويرتفع باب الكعبة عن الأرض أربع أذرع، وقد صُنع سلم من الخشب يضعونه وقت الحاجة أمام الباب فيصعد عليه الناس ويدخلون الكعبة، وقد صُنع بابها من خشب الساج[40].

وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة، وعليه دوائر زخرفية من فضة، وكتابات منقوشة بالذهب والفضة وقد كتبت عليه هذه الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[41]، وله حلقتان كبيرتان من الفضة أرسلتا من غزنين [42]، وقد ركبتا في مصراعيه[43] بحيث لا تصل إليهما يد إنسان، ومن تحتهما حلقتان أخريان من الفضة وفيهما قفل كبير من الفضة يقفل به الباب، وسمك حائط الكعبة من الداخل يبلغ ستة أشبار[44]. وأرضها مغطاة بالرخام الأبيض، وفي الجانب الشمالي قطعة مستطيلة من الرخام[45] الأحمر يقال إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي عليها، وسن بذلك سنة، كل من يعرف عنها يجتهد بأن يصلي فيها.

وقد غطيت حوائط الكعبة بألواح الرخام الملون وهي مزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة، وحوائط الكعبة الأربعة خالية من النقوش، وأما بعد ذلك إلى السقف فمزينة بالرخام المنقوش والموشى أغلبه بالذهب[46]، وفوق كل من الخلوات الثلاث التي ذكرتها والتي توجد إحداها في الركن العراقي والأخرى في الركن الشامي والثالثة في الركن اليماني، فوق كل ركن منها لوحان

من الخشب مثبتان على الحائط بمسامير من فضة، وحين يدخل السائر في الكعبة يجد على اليد اليمنى زاوية مربعة بمقدار ثلاث أذرع في مثلها، وهناك سلم يؤدي إلى سطح الكعبة عليه باب من الفضة له مصراع واحد يسمى باب الرحمة وعليه قفل من الفضة، فإذا صار فوق سطح الكعبة يجد بابا آخر مثل الباب السابق منقوشا بالفضة على وجهيه.

وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير ليحجبه عن الأنظار، وعلى[47] حائط الكعبة الأمامي فوق العمد الخشبية كتابة ذهبية فيها اسم العزيز بالله[48] عزيز مصر الذي استولى على مكة من الخلفاء العباسيين، وعلى الحائط أربعة ألواح أخرى كبيرة من الفضة متقابلة ومثبتة بمسامير من فضة وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذي أرسله من سلاطين مصر، وكان كل منهم يرسل لوحا في عهده، وبين الأعمدة ثلاثة قناديل فضية معلقة، وبلاط سطح الكعبة من الرخام اليمني، الذي يلمع كأنه البلور، وفي أركانها أربع روازن على كل منها لوح من الزجاج لينفذ منه النور، وليمنع تسرب المطر[49].

والميزاب يقع وسط الحائط الشمالي وطوله ثلاث أذرع وكله مطلي بالذهب، أما الكسوة التي تغطى بها الكعبة فبيضاء، وقد طرزت في موضعين عرض كل منها ذراع وبينهما عشر أذرع تقريبا ومن فوقهما وتحتهما عشر أذرع أيضا بحيث ينقسم ارتفاع الكعبة إلى ثلاثة أقسام كل منها عشر أذرع بواسطة طرازي الكسوة[50].

عناية العباسيين بالمسجد الحرام:

وتبين من خلال سرده مدى عناية الخلافة العباسية بالمسجد الحرام فقد ذكر أنه قد نسج على جوانب كسوة الكعبة الأربعة محاريب ملونة مزينة بخيوط من الذهب وعلى كل زاوية ثلاثة محاريب: محراب كبير في الوسط، ومحرابان صغيران على جانبيه، فأصبح مجموعها على النواحي الأربعة اثني عشر محرابا، وأنه يوجد حائط يقع خارج الكعبة تتصل نهايتاه بركني الكعبة، وأرضه مبلطة بالرخام المنقوش وبه يصب ماء الميزاب، وقد وضع تحته قطعة من الحجر الأخضر على شكل محراب يسقط عليها الماء[51].

وعني خلفاء العباسيين بمقام إبراهيم عليه السلام، فقد ذكر خسرو أنه قد وضع عليه غلاف مربع من الخشب في غاية الدقة، ووضعت عليه ألواح من الفضة وقد أحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين، وعليه قفلان وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يلمس الحجر[52].

بئر زمزم:

وقد عني الخلفاء ببئر زمزم وقد بنوا عند فوهتها خرزة[53] من الرخام الأبيض، ووضع بجوانب حجرة زمزم الأربعة أحواض يصب فيها الماء ويتوضأ الناس به، كما أن أرضها جعلت من الخشب المشبك ليسيل الماء الذي يراق بها[54] وإلى الشرق من البئر وضع بناء آخر مربع عليه قبة يسمى سقاية الحاج، وضع به أزيار[55] يشرب منها الحجاج[56].

واهتموا بالشموع التي توقد داخل المسجد الحرام فقد وضع ناحية الشرق بناء مستطيل عليه ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت، به الشمع والزيت والقناديل، وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها ببعض بواسطة عروق من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة ومعلق بها الحلق والكلابات[57] حتى يوضع الشمع في هذه وتدلى المصابيح من تلك بالليل، ويسمى هذا الموضع المشاعل[58].

وذكر أن جملة المباني المحيطة بساحة المسجد الحرام -فضلًا عن الكعبة- ثلاثة وهي بيت زمزم وسقاية الحاج وخزانة الزيت[59]، ووجد تحت السقف المحيط بالمسجد جنب الحائط صناديق من جميع مدن المغرب ومصر والشام والروم والعراقين[60] وخراسان وما وراء النهر وغيرها، يبدو أنها توضع فيها حاجيات الحجاج أو لحفظ المصاحف والسجاد[61].

وذكر أن أمير مكة كان يقيم في مكان يسمى برقة، تحيط به المياه والأشجار ويقع على مسافة أربعة فراسخ شمالي مكة، ومعه جيش خاص به[62].

وصف طريقة فتح باب الكعبة:

ويفتح بأول رجب، واختص بنو شيبة كما يذكر الرحالة بحفظ مفتاح باب الكعبة، فهم خدمها وكانت تأتيهم خلع ومشاهرات[63] من حكام مصر الفاطميين، ويترأسهم رئيس يمتلك بيده المفتاح وحين يقدم يصاحبه خمسة أو ستة أفراد، وحين يصلون إلى الكعبة ينضم إليهم عشرة آخرون من الحجاج فيرفعون السلم ويضعونه أمام باب الكعبة، فيصعد شيخ بنو شيبة ويقف على عتبة السلم ويصعد بعده رجلان ليرفعا الستار والديباج الأصفر عن الكعبة، ويمسك كل منهما طرفا الستار، بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب ويفتح القفل وينزعه من الحلق بينما الحجاج بوضع المشاهدة وقوفًا أمام الكعبة، فحين يفتح الباب يرفعون أيديهم بالدعاء فيعرف كل من يسمع صوتهم بمكة أن باب الكعبة قد فتح، فيرفع الجميع أصواتهم عالية بالدعاء، ثم يدخل الشيخ بينما الرجلان يمسكان الستار ويصلي ركعتين ثم يعود فيفتح الباب على مصراعيه، ويقف على العتبة ويقرأ الخطبة عليهم بصوت مرتفع، ويصلي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم يقف الشيخ وأصحابه على جانبي باب الكعبة بينما يأخذ الحجاج في الصعود ودخول الكعبة فيصلي كل منهم[64] ركعتين، ثم يخرج ويمتد هذا الأمر إلى منتصف النهار، ويولون وجوههم أثناء صلاتهم بالكعبة نحو الباب، وذكر أن عدد الناس في وقت امتلاء الكعبة 720 رجلا، وذكر الأيام التي يفتح بها باب الكعبة وهي الاثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال، فإذا جاء ذو القعدة أغلق الباب[65].

عمرة الجعرانة:

تطرق الرحالة إلى عمرة الجعرانة وذكر أن الجعرانة[66] تقع على أربعة فراسخ من شمال مكة ووصلها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع جيشه وأحرم منها واعتمر، وفيها بئران ماؤهما عذب إحداهما بئر الرسول، والأخرى بئر علي بن أبي طالب، وتؤدى هذه العمرة في هذا الموسم، وقرب هاتين البئرين صخرة كبيرة فيها فجوات كأنها كؤوس يقال إن النبي . صلى الله عليه وسلم . عجن الدقيق فيها بيديه، والذين يزورون هذا المكان يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هاتين البئرين،

ويتخذون من الأشجار الكثيرة هناك وقودا للخبز الذي يرسلونه إلى الأقطار تبركا، وهناك أيضا صخرة كبيرة مرتفعة يقال إن بلالا الحبشي كان يقف عليها ويؤذن للصلاة ويصعد عليها الزائرون ويؤذنون، وحين كنت بالجعرانة كان بها ناس كثيرون، وكان بها أكثر من ألف جمل بالعمارات؛ مما يبين كثرة الزائرين الآخرين[67].

ثم استرسل في وصف صحراء عرفات وذكر أنها تقع بين جبال صغيرة كالتلال وحدد مساحتها بفرسخين في مثلهما وذكر ما تحويه من معالم وأن بها مسجدا بناه إبراهيم عليه السلام ولكنه اندثر ولم يبق منه غير منبر خرب، صنع من الطوب النيء يصعد عليه الخطيب في صلاة الظهر ويخطب ثم يؤذن للصلاة فيه ومن ثم يصلي المسافرون جماعة ركعتين سنة، ثم يقيمون الصلاة ويصلون جماعة ركعتين أخريين ثم يجلس الخطيب على جمل ويتجه شرقا والناس وراءه، وعلى بعد فرسخ جبل حجري صغير يسمى جبل الرحمة، هناك يقفون ويدعون حتى وقت الغروب[68].

وذكر عناية السلاطين بتوفير المياه بالمشاعر وللحجيج، فقد أورد أن ابن شاد دل الذي كان أميرا لعدن أنه قام بإيصال الماء إلى جبل الرحمة من مكان بعيد وأنفق في ذلك أموالا طائلة، وأن الماء يحمل من جبل الرحمة إلى صحراء عرفات وعملت فيها أحواض تملأ بالماء في موسم الحج حتى يتيسر توفير الماء للحجاج. وعني الأمير ابن شاد دل بإنارة المشاعر وقد بنى فوق جبل الرحمة طاقًا مربعًا كبيرًا حتى يضعون فوق قبته كثيرًا من القناديل والشموع التي تضاء في ليلة عرفة ويوم عرفة فيرى الناس نورها من مسافة فرسخين، وقيل إن أمير مكة أخذ ألف دينار من ابن شاد دل ليجيز له إقامة هذا الطاق[69].

وفصل في بقية أداء المشاعر، ففي التاسع من ذي الحجة سنة 442هـ (27 أبريل 1051) أدى الرحالة خسرو الحجة الرابعة، وعند غياب الشمس خرج الحجاج والخطيب من عرفات إلى المشعر الحرام ويسمونه المزدلفة، وفيه أبنية جميلة منها بناء كالمقصورة يصلي فيه الناس ويأخذون منه حجارة الرجم التي يرمونها في منى، وذكر أن من العادة أن يقضي الحجاج هذه

الليلة وهي ليلة العيد هناك، حيث يصلون الفجر وعند طلوع الشمس يتوجهون إلى منى، حيث يضحون، وهناك مسجد كبير يسمى مسجد الخيف وليس من المفروض إلقاء خطبة[70] وصلاة العيد بمنى في ذلك اليوم، وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر بهما، ويكون الحجاج بمنى في العاشر من ذي الحجة وهناك يرمون الحجارة، وفي الثاني عشر من ذي الحجة يغادر منى من عزم على العودة إلى بلاده ويذهب إلى مكة أهلها[71] ووضح الطرق التي تؤدي إلى بلده، وذكر أنها الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة.

ثم ذكر وسائل المواصلات إلى بلده السائدة آنذاك، فذكر أنه حين فرغ من حجه استأجر جملا من أعرابي وذهب إلى الأحساء يوم الجمعة 442/12/19هـ، ووصف ما وجده أثناء خروجه من مكة، حيث وجد مروجا فيها جبال وبئر وقرى وسهول، ووصف الجو بالبارد[72].

ثم وصف الطائف بأنها تقع بناحية على رأس جبل، وجوها بارد في شهر يوينو لدرجة جلوسهم بالشمس من شدة البرودة، ووضح أن الطائف مدينة صغيرة فيها حصن محكم وسوق وجامع صغيران، وبها ماء جار، وذكر أنواع أشجار الفاكهة المتداولة في الطائف وحصرها بالرمان والتين، وأن بالقرب من الطائف يقع قبر عبدالله بن عباس رضي الله عنه، وذكر عناية الخلفاء العباسيين ببناء المساجد فيها، حيث وجد مسجدا ومحرابا ومنبرا، والعمران والبيوت التي يسكنونها أهل الطائف[73].

الخاتمة:

وفي الختام يتضح ما يأتي:

. ازدهار النشاط التجاري في مكة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، لا سيما في موسمي الحج والعمرة، وتعدد الأسواق، وتنوع المهن.

. عناية العباسيين بتشييد الأبراج والمساجد والمنازل التي ينزلها الحاج والمعتمر والقادم للزيارة.

. التنوع في الجنس والعرق بين سكان مكة، فقد كان يسكنها حوالي ألفين من أهلها، والبقية من الغرباء والمجاورين، ويقرب عددهم من الخمسمائة.

. تعدد مصادر الموارد المائية في مكة والمشاعر في القرن الخامس الهجري، ومنها الآبار المالحة، وقد عني بعض خلفاء العباسيين ببناء كثير من الأحواض والمصانع الكبيرة لتوفير المياه.

. تنوع النشاط الزراعي في مكة، ووجود عدد من الفاكهة الموسمية مثل العنب والبطيخ، وكذلك الخضار كالخيار والأترنج والباذنجان.

الهوامش والإحالات:

(1) خسرو، سفرنامة: 12.

(2) وهو أول جبل وضع بالأرض، الصنعاني، المصنف: 91/5. الطبري، جامع البيان: 548/1.

(3) خسرو، سفرنامة: 121.

(4) الثغرة الناحية من الأرض يقال: ما في تلك الثغرة، وفلان يسد الثغر، وكل فرجة يقال لها ثغرة، الزمخشري، أساس البلاغة: 72. الفراهيدي، العين: 400/4. الجزري، النهاية في غريب الأثر: 1/ 213.

(5) خسرو، سفرنامة: 121.

(6) المجدبة التي لا تكاد تخصب والأرض الممحلة ومحلة وأرضون محول وأرض جادب أي أمسكت الماء، الأَجادِبُ صلابُ الأَرضِ التي تُمْسِك الماءَ فلا تَشْرَبه سريعًا، ابن سيدة، المخصص: 3/ 104، المحكم والمحيط الأعظم: 345/7. ابن منظور، لسان العرب: 1/ 256. الزبيدي، تاج العروس: 138/2.

(7) خسرو، سفرنامة: 121. وقد أشار عمر بن فهد (ت885هـ) إلى استمرار الغلاء والوباء بالبلاد، ابن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى: 62/2.

(8) خسرو، سفرنامة: 123.

(9) خسرو، سفرنامة: 123.

(10) العمار هم من يأتي للعمرة من سائر الأمصار، ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 276/26. النيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 2/ 543.

(11) الفرسخ الفرجة والطويل من الزمان ليلا أو نهارا، ومقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال وكل شيء كثير غير منقطع، والفرسخ ثلاثة أميال. مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: 681/2، وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية الكويتية: 206/21

(12) خسرو، سفرنامة: 123.

(13) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(14) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(15) نفس المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(16) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(17) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(18) المصدر نفسه: 121.

(19) المصدر نفسه: 123.

(20) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(21) ولم نجد له ذكرا في المصادر المتيسرة إلا أن أحد الباحثين رجح أنه أبو عبد الله الحسين بن سلامة أمير تهامة اليمن، كان أميرًا كبيرًا أسود نوبيًا وكان مولى لرشيد مولى بني زياد، الشمري، الحسين بن سلامة النوبي ودوره في تاريخ اليمن الإسلامي: 22، وهو الحسين بن سلامة وزير الملوك من بني زياد وأمير تهامة باليمن توفي سنة 402هـ وقيل سنة 428هـ ابن الأثير، الكامل: 224/8. ابن المجاور، تاريخ المستبصر: 73. الجندي، السلوك: 44/2. النويري، نهاية الأرب: 33/ 69. وذكر بامخرمة صفاته وخصاله الحميدة بقوله: "ونشأ على أحسن سيرة حازمًا عارفًا شريف النفس عالي الهمة)، بامخرمة، تاريخ ثغر عدن: 59/2. ووصفه الزركلي بأنه عصامي من الدهاة، الزركلي، الأعلام: 238/2. ينظر أيضًا: الحامد: تاريخ حضرموت: 257/1. الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي: 145/1.

(22) خسرو، سفرنامة: 123

(23) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(24) المصدر نفسه: 124.لم نجد ذكرا لبئر الزاهد في المصادر المتيسرة.

(25) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(26) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(27) المصدر نفسه: 123.

(28) المصدر نفسه: 124.

(29) المصدر نفسه: 126.

(30) هو الباب الخامس من أبواب الكعبة وهو الذي عليه العلم الأخضر الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا. الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: 88/2. الفاكهي، أخبار مكة: 167/2. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 2/ 396.

(31) خسرو، سفرنامة: 126.

(32) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(33) الطاق: عَقْدُ البناء حيث كان، والجمع أَطواق ويسمى أيضا الطيلسان. ابن منظور، لسان العرب: 233/10. المقدسي، في التعريب والمعرب: 123.

(34) خسرو، سفرنامة: 127.

(35) لعل المقصود بباب الدقاقين الأبواب الأربعة الجيادية التي ذكرها ابن جبير في رحلته. ابن جبير، رحلة ابن جبير: 87.

(36) خسرو، سفرنامة: 127.

(37) المصدر نفسه: 128.

(38) باب عروة. نسبة لعروة بن الجعد، ويقال: ابن أبي الجعد الكوفي البارقي، الباجي، التعديل والتجريح: 3/ 1020.

(39) خسرو، سفرنامة: 128.

(40) المصدر نفسه: 129.

(41) سورة البقرة،آية 96.

(42) غزنةُ قصَبَة أبلستان وتسمى غزنين ويقال جزنة وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند فيها خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد،الحموي، معجم البلدان: 34/ 355.

(43) المصراعان من الأبواب بابان منصوبان ينضمان جميعا، مدخلهما في الوسط من المصراعين، الفراهيدي، العين: 299/1.

(44) الشبر بالكسر: ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر. الفيروزآبادي، القاموس المحيط: 529/1.

(45) خسرو، سفرنامة: 130.

(46) خسرو، سفرنامة: 130.الموشى: المخطط بألوان شتى، وكل منسوج على لونين فصاعدا فهو موشى، والوشي خلط لون بلون ومنه وشى الثوب إذا رقمه ونقشه. الجوزي، غريب الحديث لابن الجوزي: 469/2. ابن حجر، فتح الباري: 229/5. الهروي، جمع الوسائل: 1/ 122.

(47) خسرو، سفرنامة: 131.

(48) العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل العلوي الفاطمي، صاحب مصر، وكان موته بعدة أمراض، منها القولنج. وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر. ومولده بالمهدية توفي سنة 386هـ، ابن القلانسي، تاريخ أبي يعلى: 12. أبو الفداء، المختصر: 131/2.

(49) خسرو، سفرنامة: 131.

(50) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(51) المصدر نفسه: 132.

(52) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(53) الخرز فصوص من جيد الجوهر ورديئه من الحجارة ونحوها واحدتها خَرَزَةٌ. الفراهيدي، العين: 207/4. ابن منظور، لسان العرب: 344.

(54) خسرو، سفرنامة: 133.

(55) الزِّيرُ: الحُبُّ الذي يجعل فيه الماء بلُغة العراق. ابن منظور، لسان العرب، 339/4. الزبيدي، تاج العروس: 467/11. مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط: 1/ 407.

(56) خسرو، سفرنامة: 133.

(57) والكلاب والكلوب: حديدة معطوفة كالخطاف والجمع كلاليب: الكُلّابُ والكَلُّوبُ خَشَبةٌ في رأسها عُقَّافَةٌ منها أَو من حديدٍ. فأَمَّا الكَلْبَتانِ: فالآلةُ التي تكون مع الحَدَّادين. ابن دريد، جمهرة اللغة: 1/ 377. ابن سيدة، المحكم: 7/ 44. ابن منظور، لسان العرب: 1 / 725.

(58) خسرو، سفرنامة: 133.

(59) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(60) العراقين اسم أطلق على المصرين المشهورين الكوفة والبصرة. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: 2/ 198. الدينوري، الأخبار الطوال: 522. ابن حجر، فتح الباري: 13/ 312.

(61) خسرو، سفرنامة: 134.

(62) المصدر نفسهن الصفحة نفسها.

(63) أريد بالمشاهرة تعهد الملك بطانته وخاصته بجوائزهم وصلاتهم والمشَاهَرَةُ: المعَامَلَةُ شَهرًا بشَهرٍ. الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك: 1/ 144. الزبيدي، تاج العروس: 12/ 264.

(64) خسرو، سفرنامة: 134.

(65) المصدر نفسه: 135.

(66) جعرانة قرية من قرى مكة. الشيباني، شرح كتاب السير الكبير: 3//1011

(67) خسرو، سفرنامة: 135.

(68) المصدر نفسه: 136.

(69) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(70) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(71) المصدر نفسه: 137.

(72) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(73) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1) ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت. 555هـ)، تاريخ أبي يعلى، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ط، د.ت.
2) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت.711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت.

3) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت.630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1415هـ.

4) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت.597هـ)، غريب الحديث، تحقيق: عبد المعطي أمين بن أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م.

5) ابن المجاور، يوسف بن يعقوب (ت690هـ)، تاريخ المستبصر، تحقيق: أوسكر لوفغرين، طبعة بريل، ليدن، هولندا، ط1، 1951.

6) ابن تيمية، أحمد عبدالحليم (ت.728هـ)، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية للنشر والتوزيع القاهرة، ط2، د.ت.

7) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت.614هـ)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، د.ط، د.ت.

8) ابن خلف، الباجي سليمان (ت.474هـ)، التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، تحقيق: أبي لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1986م.

9) ابن دريد، محمد بن الحسن (ت.321هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م.

10) ابن سيدة، علي بن إسماعيل (ت.458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.

11) ابن سيدة، علي بن إسماعيل (ت.458هـ)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1417هـ 1996م.

12) ابن فهد، عمر (ت.885هـ)، اتحاف الورى بأخبار أم القرى، نشر جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1403هـ.

13) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت.276هـ)،الإمامة والسياسة تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ - 1997م.

14) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت.732هـ)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ط1، 1325هـ.

15) الأزرقي، محمد بن عبد الله (ت.250هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1996م-1416هـ.

16) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت.255هـ)، التاج في أخلاق الملوك تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط1، 1322-1914م.

17) الجزري، المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني (ت.606هـ)، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، 1979م.

18) الجندي، محمد بن يوسف بن يعقوب (ت.732هـ)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط2، 1995م.

19) حجر، أحمد بن علي (ت.852هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

20) الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

21) خسرو، ناصر، سفرنامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 1983هـ.

22) الدينوري، أحمد بن داود (ت.282هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عصام محمد الحاج علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ-2001م.

23) الزبيدي، محمد مرتضى (ت.1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، د.ط، 1965م.

24) الزمخشري، محمود بن عمر الخوارزمي (ت538هـ)، أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، 1399هـ 1979م.

25) الزيات، إبراهيم مصطفى، أحمد، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، د.ط، 2004م.

26) الشمري، محمد كريم إبراهيم، الحسين بن سلامة النوبي ودوره في تاريخ اليمن الإسلامي، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، جامعة القادسية، العراق، م13، العدد 2، سنة 2010هـ.

27) الشيباني، محمد بن الحسن (ت.483هـ)، شرح كتاب السير الكبير تحقيق: صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات، القاهرة، د.ط، د.ت.

28) الصنعاني، عبدالرزاق (ت.211هـ)، المصنف، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ.

29) الطبري، محمد بن جرير (ت.310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.

30) الفاكهي، محمد بن إسحاق (ت.280هـ)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط2، 1414هـ.

31) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت.174هـ)، العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، د.ت.

32) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت817هـ)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.

33) المقدسي، عبد الله بن بري (ت.582هـ)، في التعريب والمعرب وهو المعروف بحاشية ابن بري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ 1985م.
34) النويري، أحمد بن عبدالوهاب (ت. 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ - 2004م.
35) النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (ت850هـ)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ - 1996م.
36) الهروي، علي بن سلطان محمد (ت.1014هـ)، جمع الوسائل في شرح الشمائل، المطبعة الشرفية، مصر، د.ط، د.ت.
37) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الموسوعة الفقهية الكويتية، دار السلاسل، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دولة الكويت، ط1، د.ت.
38) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت.284هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.